والذكريات... صدى السنين الحاكي..!

بقلم : د. حسن بن فهد الهويمل (●)

تمر بنا ذكرى اليوم الوطني، في غياب أحد بناة النهضة الوطنية صاحب المبادرات الفذة، والقرارات المصيرية، الملك فهد بن عبدالعزيز - رحمه الله - وفي حضور خلفه المسدد خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز . وفقه الله . والذكريات كما يقول الشعراء (صدى السنين الحاكي)، فما الذي سنتذكره في هذه المناسبة التي تطل علينا كل عام أو ما الذي نستعذب ذكره، أو نكتفي بذكر مآثر المؤسس الموحد الملك عبدالعزيز. طيب الله ثراه . وهي مآثر تحتفظ بها الذاكرة كما النقش على الحجر؟

كل مواطن ينعم في ظلال الرخاء والأمن والاستقرار، في فلك مشحون بالثبور وعظائم الأمور يتبادر إلى ذهنه المؤسس، الذي جمع أطراف الجزيرة بعد تمزق، ووحد كلمة الأمة بعد تفرق، وجمع شمل الفرقاء بعد شتات، واستوعب الزعامات الإقليمية والقبلية، وشيد كياناً متماسكاً، لا يندّ عنه إلا هالك. وكم نحن سعداء حين تمر بنا هذه المناسبة، ونحن نعضّ على منجزها بالنواجذ، لا نفرط في تماسكها الإقليمي ولا وحدتها الفكرية، ولا نُساوم على ثوابتها العقيدية.

وكلما مرت هذه المناسبة طارت بنا الذكريات إلى (معركة التكوين) التي خاضها الملك عبدالعزيز مع آبائنا وأجدادنا، وامتدت معه زهاء ثلاثة عقود، واجه فيها شراذم لا تُريد وحدة العقيدة والوطن والأمة، ولا تريد القوة والاستقرار، طافت بنا الذكريات على (معركة البناء) التي انطلق منها أبناؤه يترسمون خطاه، ويستلهمون سياسته الحكيمة القائمة على التسامح، والحلم، والأناة، وبعد النظر، والتوازن والوسطية. لقد كانت معركة البناء خطوة ثابتة باتجاه المدنية والحضارة التي حرمت منها أطراف المملكة وحواضرها، وكل ما هو قائم من بنية تحتية وقلاع علمية وصناعية وزراعية ومواصلات واتصالات وإعمار، إن هو إلا مؤشرات لهذا اليوم المجيد، يوم التوحيد وإعلان اسم (المملكة العربية السعودية).

وكيف لا يسعد المواطن السعودي بهذه الذكرى المجيدة؟ وهو ناتج خيراتها، فكل مواطن لا تراه إلا عالماً أو متعلماً أو عاملاً في أي حقل من حقول التجارة أو الصناعة

كل مواطن ينعم في ظلال هذا الوطن بأمنه واستقراره ورخائه.. يستحضر إلى ذهنه - كلما مرت ذكرى التأسيس - الإنجاز التاريخي الذي قام به الملك المؤسس، الذي قاد مسيرة التوحيد والتنمية، وسلمها لأبنائه الملوك الميامين من بعده.

التعبير الصحيح لحبنا لهذا الوطن وذكرى تأسيسه: أن نحافظ على المنجزات، وأن نوحد الصفوف خلف قيادتنا الرشيدة، وأن نشد من أزرهم...

أو الزراعة. وهذه الخيرات المتدفقة من كل جانب، ما هي إلا مخاضات ذلك اليوم الأغر، يوم إعلان كلمة التوحيد الذي جمع أطراف البلاد بعد فرقة، ووحد القلوب بعد نفرة، وشاد صروح العلم والعمل بعد جهل وكساد وبطالة، وحوّل الجزيرة العربية، إلى جنات وارفة الظلال، بعد تصحر وجفاف، ونقص في الأنفس والأموال والثمرات.

لقد كان قلب الجزيرة العربية مرتعاً للفتن، ومسرحاً للأوبئة، ومجالاً للفقر والجهل والمرض، وكان القوي يسطو على الضعيف، وكانت الموارد والمراعي ميادين تنازع، حتى إذا أحكم الملك عبدالعزيز قبضته، ووزع المسؤوليات، بين أبناء البلاد، فأمن الضعفاء، وشبع الفقراء، وشفي المرضى، وأقبل الناس على الأعمال يتهافتون على المصانع والمزارع، وبلغت البلاد ذروة الأمن والرخاء، يوم أن فجر الله للملك عبدالعزيز كنوز الأرض، فكان أن استقبل هذه الخيرات وأشاعها في الوهاد والنجاد: وطّن البادية، وطور الزراعة، وشجع الإعمار، وعمم التعليم، وأشاع المشافي.. وتقدم بوطنه إلى المجتمع المدني، بخطوات ثابتة محسوبة، فلم يجازف، ولم يفرط بالقيم الدينية والأخلاقية، بل حفظ التوازن، فأخذ بالمدنية والحضارة، وطوّع كل ذلك لمقتضيات الدين الحنيف.

ولما قضى نحبه، تلقى الراية من بعده بنون وحفدة لم يبدلوا تبديلاً، ذلك أنهم تخرجوا من مدرسته، فكانوا خلفاً صالحاً، جنبوا البلاد ويلات الفتن، ودخلوا بها سدة التاريخ الحديث، بخطى وئيدة ورؤية حصيفة. وإذ حباها الله بالخيرات، فقد شرفها بخدمة الحرمين الشريفين، فكان أن طهر قادتها بيت الله للطائفين والعاكفين والركع السجود. كانت التوسعات الأسطورية، وكانت التسهيلات التي شهد بها القاصي والداني، وكل ما هو قائم في الواقع أو كامن في الأذهان، إن هو إلا شاهد عدل على أن اليوم الوطني له ما بعده.

وإذ مكّن الله لقادة البلاد فقد عرفوا حق الله عليهم وامتثلوا أمره (الذين إن مكّنّاهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعرف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور (الحج:٤١).

وحق المؤسس علينا، ونحن نستذكر اليوم الخالد، الذي أعلن فيه اسم المملكة، وشيد فيه كيانها أن نخصه بخالص الدعاء، وأن نخص أبناءه بصادق النصح، نشد من أزرهم، ونحمي ساقتهم، ونعضدهم في مسيرتهم المحفوفة بالمخاطر، فالدين النصيحة، والدين المعاملة، والبر حسن الخلق.

إن البلاد بما حباها الله به من خير عميم، وبما تنهض به من دعوة صادقة، ومساندة للمسلمين في آفاق المعمورة، مستهدفة من أعداء الدين والوطن، ليس أدل على ذلك من تلك الممارسات الدنيئة من شرذمة الإرهاب وفلول المفلسين، ودعاة السوء على أبواب جهنم.

والبلاد التي حماها اله من الفتن العمياء التي اجتاحت الوهاد والنجاد، بحاجة إلى تضافر الجهود، وتوحيد الصفوف، واجتماع الكلمة، ونهوض كل مواطن بما يقدر عليه مناصحاً أو محذراً أو مستعدياً السلطة على كل متجبر كذاب، فالوطن بأبنائه وليس ببنائه والوطن مجموعة قيم، وليس مجموعة شعارات، إنه منجز اليوم الوطني، فإذا كنا حفيّين بهذه الذكرى السعيدة، فإن التعبير الصحيح لهذا الحب، أن نحافظ على المنجزات، وإذا كنا نحب هذه الذكرى، فلنحب الوطن بكل ما ينطوي عليه من قيم: نهاب سلطانه، ونحترم علماءه، ونرحم ضعفاءه، ونأخذ على يد سفهائه، ونصدق القول والعمل؛ فالحب العاطفي الجبلّي لا يُسمن من جوع، الحب يصدّقه الإيثار، وتكذّبه الأثرة، واليوم الوطني محطة للمراجعة والمساءلة والنقد للذات أولاً، ثم للآخر ثانياً؛ ومن لم يبادر بالحقوق فليس أهلاً للواجبات.

(•) رئيس نادي القصيم الأدبي